تَسَاوُقُ الوزنِ العَرُوضِيّ مَع الوَزنِ الصرفيّ
في القصيدة العربية

إعداد

الدكتور فتوح أحمد خليل

أستاذ النحو والصرف والعروض

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث

جامعة سوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحَمْدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى سيِّدِنَا محمَّدٍ ـ صلَّى الله عَلَيْه وآله ـ الَّذِي قَالَ فِيهِ جَلَّ وعَلا: { وَمَا عَلَّمنَّاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآن مُّبَيْنَ لِّيُنذِرَ مِنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}(١). فصلَّى الله على نبيِّنا كلَّما ذكره الذاكرون، وغَفَل عن ذكره الغافلون، وصلى الله عليه في الأوَّلين والآخرين.

وبعدُ:

فلا شك أن أول شيء استرعى انتباه القدامى من عروضيِّ العرب هو الوزن، وخير دليل على ذلك ما جاء على ألسنة أساطين العرب من الأدباء واللغويين، يقول الجاحظ :"وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب، وعلى من تكلَّم بلسان العرب، والشعر لا يُستطاع أن يترجَم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوِّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه، وذهب حسنُه وسقطَ موضعُ التعجب، لا كالكلامِ المنثور، والكلامُ المنثور المبتدأُ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر"(٢).

ويمكن القول بأنَّ : " الشعر كلام موزون، تقبله الغريزة على شرائط"(٣)، وذلك إذا كان الوزن موضع الأهمية والاعتبار، وأولى الأشياء خصوصية بالشعر ، " إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن"(٤).

---

(١) سورة يس ٧٠

(٢) الحيوان ١ / ٢٤

(٣) رسالة الغفران ٢١

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١ / ٤٢

هذا ، وقد كان الخليل بن أحمد الفراهيدي ـــ رحمه الله تعالى ـــ سبَّاقًا إلى جعل الوزن الشعري كُلاًّ كبيراً، تندرج تحته التفاعيل العروضية؛ الخماسية والسباعية ، على أنَّ كل تفعيلة منها تنتظم في وحدات صغرى، هي: الأسباب، والأوتاد، والفواصل. ومن ثَمَّ تتساوق كل التفاعيل في متواليات إيقاعية متناسبة زمنيًّا، محكومةً بقانون التعاقب؛ وفق توالي الحركات والسكنات في البيت الشعري أوَّلا، وفي القصيدة ككل بعد ذلك، من خلال عنصر مهم من عناصر البناء اللغوي، هو (التَّساوق) " الذي يتحقق عبر مجموعة من سمات التشابه، الذي هو عبارة عن تتابع بنيوي في بيت شعري، أو في مجموعة شعرية"(٥).

إذن فالوحدات الصوتية هي مادة الشاعر في خلق إيقاعه، ففي تركيبها وتكرارها بكيفية معينة يتولد الإيقاع الشعري، ولقد اكتشف الخليل بن أحمد الفراهيدي الأساس الصوتي الذي بنى عليه الشاعر العربي إيقاعه، وهو أساس بسيط فيما يرى ذلك الدكتور شكري عياد لأنه يبنى على التمييز بين السكون والحركة ، أي أنَّ تركيب الوحدات الصوتية بما تشتمل عليه من حركة وسكون يشكل إيقاع القصيدة . " غير أنَّ هذه البساطة، بساطة خادعة، فإننا إذا شرعنا في تتبع النظام الذي تجري عليه الأوزان المختلفة من حيث تعاقب الحركات والسكنات طالعتنا أشكال بالغة التعقيد(٦).

ولا يخفى على الدارسين ما بين علمي العروض والصرف من من علاقات تتمثل في الشكل (الميزان الصرفي)(٧)، و " ما الوزن الذي هو أساس في عمل

---

(٥) البنيات اللسانية في الشعر ١٢والتشابه والاختلاف ٩٧

(٦) موسيقى الشعر العربي ٢٩

(٧) فن التقطيع الشعري والقافية ٤٧٥ .

الخليل ، إلا تطوير لمفهوم الميزان الصرفي ، بحيث يتناول البنية السطحية للكلمة لا البنية العميقة ، ويتجاوز الكلمة الواحدة إلى الكلم التي تمتزج فيه معا"(٨).

ولن يتحقق هذا الجانب من الدراسة من خلال الدراسة الصوتية فقط، ولكن من خلال الربط بين الجانب الصوتي، والجانب العروضي ؛ لأن كثافة الإيقاع ووضوحه لن يتما إلا من خلال الربط بين البنية الصوتية والبنية العروضية. ولابد من إماطة اللثام عن مصطلحين سوف يتكرران كثيرًا معي في هذا البحث.

الأول : التساوق :

وهو في اللغة من قولهم : " ساقَ الإبلَ وغيرَها، يَسُوقها سَوْقاً وسِياقاً، وهو سائقٌ وسَوَّاق شدِّد للمبالغة ....، وقد انْساقَت وتَساوقت الإبلُ تَساوقاً إذا تتابعت وكذلك تقاوَدَت فهي مُتَقاوِدة ومُتَساوقة ، وفي حديث أُم معبد فجاء زوجها يَسُوق أعْنُزاً ما تَساوق أي ما تتابَعُ "(٩) ، وأَصْلُ (تساوق) : تَتَساوق، كأنَّها – لضَعْفِها وهُزالِها – تَتَخاذَلُ ويَتَخَلَّفُ بعضُها عن بَعْض، وهو مَجازٌ....، ومما يُسْتَدْرَكُ عليه : انساقت الإبل : سارت متتابعةً . وسَوَّقَها كساقَها ، قال امْرُؤُ القَيْس:

لنا غَنَمٌ نُسَوِّقُها غِزارٌ كأنَّ قُرُونَ جِلَّتِها العِصِيُّ (١٠)

وقال الزمخشري: " تَساوق االغنم: تتابعها في السير، كأن بعضها يسوق بعضها"(١١).

---

(٨) في البنية الإيقاعية للشعر العربي ٥٢٦ .

(٩) لسان العرب (سوق) .

(١٠) تاج العروس (سوق) .

(١١) الفائق في غريب الحديث و الأثر ١ / ٣٠

أما التساوق عند المحدثين فهو رصف الكلمات في السياق اللغوي، بحيث ترتبط العناصر اللغوية أحدها بالآخر دون التقيّد بالمواقع الإسنادية حتماً(١٢).

ومسألة ترديد وحدة صوتية معينة على مسافات متساوقة " من شأنها أن تؤدي إلى الإحساس بالانسجام كمؤشر لمبدأ التماثل" (١٣).إذ ليس من الممكن أن " تسمى بنية (ما) إيقاعية؛ إلا إذا واجهنا تكرارها"(١٤)، وذلك التكرار أو التماثل يجب أن يكون خاضعاً لضوابط معينة، كي لا يقع في هوة الرتابة أو النثرية، فالشعر ــ إذن " ليس رجوعاً كاملاً، إذ لو كان كذلك لما أمكنه أن يحمل معنى "(١٥).

وليس هذا قصراً على النقد الحديث بل أن ثمة نقوداً عربية تقليدية تطرقت إلى هذه المسألة في معرض حديثها عن التكرار، حيث ذهبت إلى أن سر الانسجام يكمن في التكرار والتنويع في آن واحد(١٦).مما يحقق " الوظيفة الإقناعية في النصوص الحجاجية " ([١٧])، " بالإضافة إلى تكرار الترادف في مستوى اللفظة أو العبارة،كما يكون التكرار في مستوى البنيات الموزونة بعدد معين([١٨]) ، " كما أن التكرار الإيقاعي المتناسق المميز للقصيدة يشيع فيه لمسة عاطفية وجدانية تحققها

([١٢]) مبادئ اللسانيات ٣٠٠ - ٣٠١.

([١٣]) اللغة الشعرية دراسة في شعر حميد سعيد ٢ و الأسلوبية ونظرية النص١٠٥والبنيات الدالة في شعر أمل دنقل ٣٤.

([١٤]) بنية اللغة الشعرية٨٦ والبنيات الدالة/٣٣.

([١٥]) بنية اللغة الشعرية/٩٦.

([١٦]) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ٣٩/٢ ــ ٤٠.

([١٧])النص الحجاجي العربي٦٥.

([١٨]) أسلوب التكرار بين الدرس القديم والأسلوبية الحديثة ، دراسة نظرية تطبيقية ٩١

تكرارات المتوالية اللفظية والتركيبية مما يجعل لدى المتلقي قدرة على التأويل والتأمل بشكل جد فعال، وهذا ضرب من ضروب الانسجام الوجداني بين النص والمتلقي"([١٩]).

والثاني : الوزن :

ويُعدّ عنصراً مهماً في النص الشعري ، ومكونا إيقاعيا رئيسا عند القدامى والمحدثين([٢٠]) ، " وقضايا الإيقاع عند بعضهم جزء من بنية الوزن تفسّر من خلاله وتفسّره"([٢١]) ، " على أنّ للوزن أقيسة إيقاعية تصاحب إيقاع الكلام ، وتحدد لتشكُله مواقع موسومة، ولكن قد يجري الإيقاع أيضا ، في ثنايا الكلام خارج تلك المواقع الموسومة ، وقد جرى الإلحاح على عنصر (الوزن) في التراث النقدي القديم، وجعله فيصلاً بين فنّي الشعر والنثر. غير أنَّ الدراسات الحديثة أخذت تُهوّن من أمر القسمة الحاسمة للكلام الأدبي بين شعر موزون ونثر مرسل، وتشدّد على احتساب منطقة وسطى تظهر من تداخل الشعر والنثر، وتضمّ النظم الذي لا شاعرية فيه والنثر الموقَّع(٢٢).

الهدف من البحث:

لَّما لفت نظري كثرةُ ما جاء في أبيات الشعر العربي من اتفاق كثير من التفعيلات العروضية في وزنها العروضي مع كثير من الأبنية اللغوية في الوزن الصرفي ؛ فضلا عن تكرار الموقع العروضي للوحدة الموسيقية العروضية والوحدة

([١٩]) البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ١٧٣ والبديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ٩٦ .

([٢٠]) الإيقاع في الشعر العربي٥٨

([٢١]) القافية تاج الإيقاع الشعري ٧

([٢٢]) المختار من الأدب الإسلامي ١٦.

الموسيقية اللغوية ــ إمَّا في بيت واحد أو في أكثر من بيت ــ أردت أن أقف عند تلك الظاهرة وأدرس أبعادها.

كما يهدف البحث إلى تحديد تلك العناصر التي أسهمت في توليد ظــواهر أخرى من الموسيقى ؛ التي لا تتوقف عند تقطيع الكلام بين حركة وســكون ــ فحسب ــ بل التي تنتج من تكرار عنصر صوتي بعينــه ، أو بنيــة بعينــها ، أو تركيب بعينه ، فضلا عن التشكيلات الناجمة عن التــوازي والتقســيم في الأداء اللغوي ، مما يولد إيقاعًا ينبغي رصده لاستكمال درس هذا الجانب من جوانــب الأثر الشعري ، إذ إنَّ عناصر الإيقاع يبرزها التكرار أو التقسيم، كما قد يبرزهــا التماثل أو التخالف.

هذا ، وقد وَجَدْتُ أدوات تلك الظاهرة المقصودة ؛ تتضح في أنه قد يكون الجزآن العروضيَّان متوازنين متعادلين، لا يزيد أحدهما على الآخر، مــع اتفــاق نهايتيهما على حرف بعينه ، أو تكون الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان، والنهايات على حرف واحد ــ أيضًا ، أو تكون الأجــزاء متعادلــة، وتكــون النهايات على أحرف متقاربة المخارج؛ إذا لم تكن من جنس واحد. لكن في كل ذلك تكون الأجزاء متوازنة متعادلة ، مما يترتب عليه رونق التــوازن الشــعري، وحسن التعادل الإيقاعي. وسوف أتناول في هذا البحث المسائل الآتية :

الأولى : علاقة الوزن العروضي بالوزن الصرفي.

والثانية : تساوق الوزن العروضي مع الوزن الصرفي عند القدامى.

والثالثة : تساوق الوزن العروضي مع الوزن الصرفي عند المحدثين.

والرابعة : تساوق الوزن العروضي مع الوزن الصرفي في البيت الواحد.

والخامسة : تساوق الوزن العروضي مع الوزن الصرفي في أكثر من بيت .